رجل صغير

للأستاذ ثروت أباظه

رجل ، إذا كانت معالم الرجولة شاربا ضخما وجسما عريضا .

غنى ، إذا كان الغنى مالا وفيرا وبسطة فى الرزق . ذو سلطان، إذا كان السلطان خنوع الآكلين من يده وخضوع الطامعين فيه .

ولكنه طفل إذا كانت الرجولة اتساعا فى الأفق وبعدا فى النظر وتجربة فى الحياة . وهو فقير إذا كان الغنى تقديرا للمال وانفاقا له فى أوجهه ، وإذا كان الغنى أن يبسط الانسان يده فلا يملها إلى عنقه حتى ليكاد يختنق بها . وهو تابع ذليل إذا كان السلطان قوة فى الشخصية لا فى النفوذ، وصلابة فى الجليل من الأمور لا التافه منها .

مسكين هو ! وهب الله له من أسباب الرجولة والغنى والجاه ما يتمنى كل انسان أن يوهب ؛ ولكن ماذا يفعل ؟ مات أبوه وهو لم ينل من الثقافة إلا حظا لا يقيم للعقل أودا ، فانحرف به تفكيره عن أن يكمل ما يجب أن يسير فيه ، وأعماه الغنى العريض الذى ترك له عن الفقر المدقع الذى ينحط فيه عقله فصار كذلك ... رجلا وهو طفل ، غنيا وهو فقير ، ذا سلطان وهو عبد .

هو ضيق العقل بطبيعته، وقد زادته ثقافته المبثورة ضيقا ، فهو لا يكاد يفعل أمرا إلا ليدل به على الغباء العميق والفكر الضحل . ولعل هذا داعية إلى بخله الشحيح على غناه الواسع ، فتراه يعد للاقتراض يده وفى وسمه دائما أن يمدها إلى جيبه . وغباؤه هو وسيلة أصدقائه اليه فهم يسخرون منه فى أنفسهم ، وينقذون من غبائه إلى ماله فيعيشون على مديحه ، يأكلون من ضعف نفسيته وشعوره بما هو فيه من نقص. وهو منقاد لهم، ويفهمونه أنه قائدهم، وعلى الرحب منه يفهم ! رجل طفل ، غنى فقير ، سيدعبد .

عرفته حين كان لا بدلى أن أعرفه، فهو زميل المكتب الذى لا بد له من اثنين ليجلسا اليه ... كان معى فى المدرسة الابتدائية، ولاحقنى إلى المرحلة الثانوية، وانقطع عن الدراسة فى منتصف الطريق. وذهب إلى أملاكه الواسعة ولكنه داوم على الاتصال بى، ولعلى الوحيد من الذين يعرفهم ويصبر على معرفتهم دون أن

فقررت على تلاميذ الفرقتين الأوليين من المدارس الثانوية منهاجا فى الأدب كفن تعرض فيه النصوص من القرآن الكريم أو السنة الشريفة أو شعر العرب ونثرهم فى مختلف العصور ، ثم تناقش هذه النصوص مناقشة شرح ودراسة وتحليل، ثم تستنبط منها بعد ذلك الظواهر الأدبية ، وهى طريقة استقرائية ناجحة، وهى وحدها التى رآها كبار الأدباء جديرة بالدراسات الأدبية الفنية ، إذ فيها يعود الطالب على حرية الرأى ، والاستقلال فى الفهم ، وتمرينه على الملاحظة والنظر الصحيحين ، ثم على الذوق والاستنباط ؛ تغرس فيه حب الاطلاع على كنوز الأدب الزاخرة فى مختلف العصور . لو بقيت هذه المناهج ، لحققت لنا ما نصبو إليه من سلوك الاتجاهات الحديثة فى دراسة الأدب ونقده ، نعم لم تبق هذه المناهج بل عصفت بها الأهواء كما تعصف بكل مشروع نافع ، فمحيت هذه المناهج من الفرقة الثانية وأعيدت إليها المناهج الأولى الجافة التى لا تمت مطلقا إلى الأدب بصلة، وبقيت فى السنة الأولى ، إلا أنها بقيت فقط فى المنهاج ، فلم توضع لها كتب يستضىء على ضوئها المدرسون . فانتهز بعض محترفى التأليف فى الكتب المدرسية هذه الفرصة ووضعوا فيها مذكرات أقلها كان جيداً ، وأكثرها كان تافها قصد أصحابها من ورائها الربح المادى ، فألفوها على عجل ، وطبعوها على عجل فجاء الكثير منها فطا ممجوجا ...

ومن النبطة أن نذكر هنا أن أول من نادى بهذا الرأى فى دراسة الأدب وجاهر به فى كتبه ، ودروسه ومحاضراته هو معالى وزير المعارف الحالى الدكتور طه حسين بك ، وما دامت الفرصة قد سنحت له لتحقيق آرائه ، والأمر أصبح فى يده ، فمن حقنا عليه ، بل من حق كل ناطق بالضاد عليه أن يذكره بذلك ليعيد النظر فى مناهج الأدب المدرسية ، حتى تصاغ هذه المناهج على صورة نافعة ترضى الأدب أولا ، فيرضى عنها الأديب ثانيا ...

عبد الجواد سليمان
المدرس بمعلمات سوهاج

ينال مديحا أو اعجابا . عرفت ما ينقاد اليه ، ورأيت اصراره على صحبتي فوجدت حتما على أن أنبه من غفلته فنبهتها ولم تنتبه، وظننت بعدها أنه منقطع عن صحبتي الناقدة البغيضة ولكنه أصر عليها فأصررت على التنبيه .

غاب عن لقائي أشهرا طويلة فحمدت الله في نفسي، فليس أثقل على من أن أواجه مخطئا بخطأه، ولا يسعني أن أسكت وشخص يعتبرني صديقا يتردى في هاوية بعيدة لا أعلم إلى أين تنتهي به .

كان والده رجلا عظيما على أوثق صلة بكبار القوم؛ وقد استطاع هو أن يصل إلى صحبة هؤلاء عن طريق أبيه فأكرموا فيه ذكرى والده، واستطاع أن ينفذ من أبواب الحكام الموصدة فكان يقضي هناك أمورا . كان لابد لأصدقائه أن يعرفوا أيضا هذه المكنة التي بيد صاحبهم فاستغلوها منه وصاروا يرجونه أن يتوسط ليقبضوا هم الثمن. وبلغني هذه الأنباء في الشهور التي انقطع عني فيها، وأخبرني من أبلغها أن الثمن يصل في النهاية إلى جيبه هو .

ألمت للوالد الكبير ، يقضي عمره ليحيط اسمه بالسمعة الشريفة ، ويقضي نحبه فيلوث الوارث السمعة.. الم وحمدت الله ثانية أن انقطع عني فلم تصبح ثمة صداقة أنا ملزم أمامها باخلاص النصح وازجاء النقد

ولكن لا .. إن الصديق لم ينقطع عن عزوف . ولكنها مشاغل بين صحبة شريرة وعمل غير كريم — لم تكن صداقة مقطوعة ولكنها كانت صلة موقوفة .

قصد إلى حيث يجدني — على وجهه من الأسى أمارة ومن الغباء أمارات

— سلام عليك!

— وعليك — خيرا ! أفراغ جئت تملأه بهذه الجلسة

— بل هم جئت أجلوه بالجلوس اليك

عفوا — منذ متى أزيل أنا همك — اذهب إلى أصدقائك واصحبهم إلى ليلة ممربدة ينطلقون بمديح يبدل همك أفراحا ... خبرني بربك — ألا تمل المديح ؟

— أراك قاسي القلب .. حزين يقصد اليك فتسخر منه

— لا والله ما اليها قصدت ولكنني أسأل مخلصا في السؤال ألا تمل المديح ؟

— ألا تسأل عما أنا فيه .. أليس ذلك أولى بالصديق ؟!

— أتعرف الأولى بالصديق.. أتعرف الصديق الأولى بالصديق أن يسمع النقد ولو على مضض ، والأولى بالصديق أن يمحص القول وينعم فيه النظر .. أجل أعرف انك على كره منك تجلس وتسمع، وأنا أيضا على كره مني أقول وأطيل، فإنه يؤلمني أن يستغل اسم أبيك فيما يستغله أصدقاؤك .

— ماذا سمعت؟

— سمعت ما تعلم أنه يحدث وتسكت عنه لتنال ما ينهالون به عليك من مديح تعلم أنت في بعيد نفسك أنه كاذب

— اذن فلهذا طردت

— طردت !

— أجل ذهبت اليوم لأقابل السيد بك .. صديق أبي .. نعم انك تعرفه ويعرفك ، وأخبرني سكرتيره أن لديه أمرا يمنعني من الدخول

— ولن تكون الأخيرة

— فماذا أفعل ؟

— أعيد ما أعدت ؟ — أقص السوء من أصدقائك ، وأصح تنقذ ما بقي لك من أبيك

— انها لم تنقص

— بل كادت تضيع — كانت ثروة ضخمة

— أي ثروة تلك .. أنا لم أفقد فدانا واحدا

— وهل هذه ثروة .. كانت سمعة كريمة فلوثتها.. ادركها.. ادركها فانها لا ترجع إن ضاعت، وقد ترجع الأفدنة

— أنت تعلم أني لا أمد يدا لرشوة

— بل تمد أيادي لا يستطيع شخص واحد أن يمدها .. إنها أيدي أصدقائك جميعا .. تمد باسمك ، وباسمك تنال ما تنال واسمك هو المهان .. اقطعها والإضاع بناء بناه أبوك جميعاً ..

— أنت ما تزال ناقدا . ما ذنبي أنا به

نعم .. لا ذنب لك .. سبحانه يعطي الثناء لمن يشاء من عباده وقد خلقك غباء لا يفهم وجمادا لا يحس.. قم أيها الرجل .. لا — لا تقم .. بل أقم كما أنت فاني أنا الذاهب واحذر بربك أن أراك فما أطيق .

وانصرفت .. لقد بذلت جهد الصديق وجهد السليط ولم أفلح ولن أفلح.. ما حيلتي؟ هكذا هو .. فني فقير .. سيد عبد .. رجل طفل .

مروت أباظة